النظر الى الحركة والى الاشياء يحول جثة غسان كنفاني الى قاعدة لاغتيال الكتابة . وهي ، بذلك ، تجرد كاتبنا الكبير من اية قيمة خلاقة عدا الموت .

وهنالك ، هنالك من يعطي الكتابة قدسية الانفصال ، وشرعية الطلاق عن المغامرة، والاحتيال على الحياة والخطر . هنالك من يعتبر الكتابه غاية في حد ذاتها .

ولكن غسان كنفاني هو كاتب الحياة . كان يكتب لانه يحيا . وكان يحيا لانه يكتب ويحيي ذاكرة الفلسطيني لتكون مكان المستقبل . لم يكن الموت هدفه لانه لم لم يكن عاجزا عن الحياة في الكتابة ، ولانه لم يكن بعيدا عن حركة الفعل الفلسطيني الثوري التي تبلور حياتها في الصراع . وكان توحده في الفعل الكتابي ، والذي يبلغ حد التصوف ، نوعا من استرداد حياته في حياة شعبه وصياغتها في مسرى الحلم العظيم.

لقد سقط غسان كنفاني فيميدان الصراع . سقط وهو يسيطر على موقعه الكتابي. وقد اغتاله الاعداء لانه حمل فاعلية الكتابة التي تصنع جيلا سيعثر على اداة التعبير عن فاعليته في السلاح . ولذلك ، فان الدفاع عن غسان كنفاني ، امام اخطاء من لا يرى فيه غير موته ، هو دفاع عن الكتابة وعن الحياة .

ويعرف الكاتب الثوري ان اداة التعبير عن فاعليته الاجتماعية تأخذ شكل الكتابة لانها تميزه وسلاحه . وليس بوسع الكتابة ان تحقق اثرها النضالي الا اذا كانت كتابة ناجحة . فالفن الرديء الذي يروج له الصغار في حياتنا الآن ، تحت اي شعار كان ، لا يقل ضررا عن السلاح الرديء . وقد كان غسان كنفاني فعالا ومؤثرا باتقانه مهنة الكتابة ، بخصوصيته الفنية الجميلة ، وبطريقة توظيفه هذا الجمال . وليس بانقلاب المعادلة .

لن نلتقي به بعد ... لن نسمع مزيدا من تعليقاته الساخرة على الذين يأتون الى الكتابة بفضيلة القضية . ولكنه يقتحمنا دائما بقوة كلماته التي لا تموت . كم كتب الفلسطينيون وماتوا . ولكن حبرهم كان يجف مع دمهم . كتابته هو قد تكون هي النادرة التي تصلح للقراءة بعد العودة من جنازة كاتبها . وتاريخ تبلور النثر الفلسطيني الجديد يبدا من غسان كنفاني .

لماذا هو .. لا سواه ؟ تلك هي الهدية . ذلك هو النجم . هو الموهوب الذي عرف كيف يربي موهبته وفي اي نهر يضعها .

لقد تمكن غسان كنفاني من اداء دوره ، لان له دورا ، ولانه مؤهل ، فنيا ، للقيام بهذا الدور . كان نتاج رحلة العذاب الفلسطيني من السقوط المتمثل في وعاء المخيم حتى الصعود المتمثل في واقعية البندقية . وفي عمله الكتابي الذي مارس من خلاله دوره الاجتماعي والوطني تأريخ الحركة الفلسطينية في تلب فنان . لقد كان ثوريا من حيث هو كاتب ثوري . لم تنتزع هذه الصفة من لحظة الاستشهاد .

كان يعرف لماذا يكتب ولمن يكتب . ولكنه كان يعرف ايضا ان قيمة هاتين المسألتين مشروطة ، لانتاج الفن ، باتقان تطبيق المسألة الاخرى : كيف يكتب .

لم تسلم كتابة غسان من الاتهام حين ارتقى بشكله الكتابي من حالة السكون الوصفي الى حالة ارقى واصعب بتأثير تعقد القضية التي تحتويه . ولم تسلم من مواجهة هذا السؤال الابدي : من يفهم هذا الاسلوب ؟ لم يكن غسان كنفاني سهلا